الحرف العربي بين معيارية الوصف وذوقية التّأثير

الدّكتور: أحمد درويش

جامعة ابن خلدون ـ تيارت

حين تتحول تواصلية الكلام مع الآخر إلى الرغبة في استمالته والتّأثير عليه، تضحى ملافيظ ذاك النّصّ وبنياته، وأشكال هذا الخطاب وتراتبه محلّ مساءلة عن دورها وقيمتها وعن كيفيات تحقيقها لتلك الرغبة. وإذا انضافت إلى تفرّد نمط النّصّ، وتميّز شكل الخطاب، طرافة التّصوير؛ كأن يسخّر رسم الحروف آلةً في الإمتاع أو الإقناع، سيتوجّب حينئذٍ البحث في علاقة كلّ ذلك بفاعلية التّأثير، ولأجل هذا ،كانت لنا هذه الوقفة وهذه الدّراسة.

الكلمات المفتاحية: رسم الحرف؛ الإمتاع والتأثير؛ فاعلية الحجاج؛ عوامل الحجاج؛ النص؛ الإقناع.

The Arabic Letter between the Normative of description and the Gustation of the Effect

Abstract: When communicative speech with the other turns into a desire to wooing and influencing him, the utterances and structures of that text, the shapes of that speech and its hierarchies become subject to accountability for their role, value and how they realize this desire. And if it was added to the uniqueness of the text style, and was distinguished the speech form, the wit of the photography; as if drawing letters is being used/devoted as a tool for entertainment or persuasion. At that time, it will be necessary to examine the relationship of all this with the effectiveness of the influence, and for this, we had this pause and this study.

Keywords: Character drawing, entertainment and influence, argumentation effectiveness, argumentation factors, text, persuasion

لم تكن عناية العرب بلغتهم بدعاً ولا خروجا عن المعهود؛ إذ تذكر كتب تاريخ العلوم اهتمام أمم سابقة بلغاتها، " فقد دلّت البحوث الحديثة على أن الحضارات الشرقية [كالسومريين، والفينيقيين] قد اهتمت باللّغة اهتماما لا نظير له في البقاع المختلفة من العالم"[1]، ومن بعد ظهرت دراسات الهنود، واليونان، والرومان.[2]

إنّ اللّافت في درس العرب هو ثراء وتنوع أساليب النّظر في مكونات هذا اللّسان؛ إذ لم يُكتف بإظهار الحكم الخفية من القواعد المستنبطة، ولم يقف البحث عند الكلمة، إفرادا وتركيبا، بل عاج على الحرف يتأمله ويستنطق دلالاته، مفرغا شحنات من العواطف والصور

تاريخ تسليم البحث: 20 مارس 2017.

تاريخ قبول البحث: 12 جويلية 2017.

والمعارف، وبهذا تخطّى هذا المكون، أي الحرف، حدوده في الوصف المعياري المبثوث في كتب الأصوات والنّحو، ووصل ليكون عمادا في التّأثير والإقناع.

يتجلّى التّشبّع أو التّنوع في دراسة الحرف العربي في تعدّد المجالات المعرفية التي تناولته؛ فعلاوة على وصف اللغويين وتوصيفهم له في شتّى مستويات الدرس اللّساني؛ الأصوات والإفراد، والتّركيب والأسلوب، إلا أنّنا نقف على حقول معرفية أخرى تستعمله ومنها فن الرّسم، وذوق الصوفية، وخيال الشّعراء.

مع الرّسم/ الخطّ:

تميّز البحث في رسم الحروف بالتنوع وتعدّد وجهات النّظر فيه بتعدّد غايات الدرس؛ فهذا يبحث عن أصل الخطّ إن كان توقيفا أو تواضعا، فيؤرخ لمراحل التّطور، كجرجي زيدان الذي تحدّث عن أدوار أربعة للكتابة العربية هي" الدور الصّوري الذّاتي، الدور الصوري الرمزي، الدور المقطعي، الدور الهجائي"[(3)] ، وذاك يبحث في علاقة الرّسم العربي برسوم لغات أخرى كيحي عبابنة الذي يرى أن" الخطّ العربي ظاهرة حضارية إنسانية، فهو أعمّ من أن يكون اختراع أمة بعينها"[(4)]، بل هو سليل رسوم لغات قديمة.

ونجد البعض الآخر يتذوق مظانّ الجمال في رسم الحروف، فيتفنّن في تنميق الكتابة، وظهرت لذلك أنواع الخطوط؛ كالكوفي، والجلي، والنّسخ..، ويُشار إلى أن "تسميات الخطوط إقليمة صرف،"[(5)]، وهناك من " اتخذها [شكل الحروف] مادّة طيّعة لرسم أشكال إنسانية أو حيوانية أو نباتية"[(6)]، وحسبنا ما ذكر دليلا على ثراء النظر في مجال الرّسم.

الحرف والذّوق الصوفي:

عناية أرباب الذّوق بالحروف مشهورة لا تكاد تخفى على أحد؛ فقد جعلوها من معانيهم لاعتقادهم بأنه "ليس من حرف إلا وسبّح اللهَ في لغة ما، ولذلك كانوا يحاولون أن يبلغوا من درجات الفهم أعمقَها "[(7)] ، في سعيهم لمعرفة وشهود الحقيقة الكلية .

ولمّا كان للصّوفيين معانيهم الخاصّة بمجاهداتهم ومشاهداتهم ، جعلوا لغتهم متفرّدة في المعجم والتّركيب، فالحروج عن معهود اللّفظ، وإضافة اللّفظ إلى نفسه، وتقطيع الحروف " آليات لغوية مختلفة لتوليد المصطلح الصّوفي"[(8)]، لكن هل كان للرسم علاقة في توليد تلك المعاني، وصنع هذه المصطلحات؟ الإجابة عن هذا التّساؤل ستغرق البحث وتخرجه عمّا جاء له، ولذا سنتركها لموقف آخر.

الحرف بين المعجم والايحاء :

قد يقال إن المعجم من مجالات البحث اللّغوي، فما مسوغ تخصيصه بهذه الوقفة؟ سنقول ليس للحرف دلالة ذاتية كبقية أقسام الكلم، الاسم والفعل، كما يقول النحاة[(9)]، وعلى الرغم

من هذا خصّه العلماء بمعانٍ معجمية ودلالات ايحائية، كالذي صنعه عباس حسن حين تحدّث عن" أصوات الحروف العربية وايحاءاتها الحسية والشعورية"[10]، فجعل للذّوق حرفي اللّام والرّاء[11]، ولحاسة اللّمس التاء والثاء، والدّال والذّال، والكاف والميم[12]، وكذا فعل في سائر الحروف مع بقية الحواس.

وهناك من أحصى للحروف معانٍ ذاتية، وهنا يستوقفنا منهجان؛ منهج قديم نسب للخليل بن أحمد الفراهيدي(175)، وهو للخليل بن أحمد السجستي(...)، وفيه يختصّ الحرف بدلالة معينة شأنه شأن أي لفظ؛ فحرف(التاء) يعني" البقرة الّتي تُحلب دائما"[13]، و(الثاء)" العين من كلّ شيء"[14]، أي خياره، و(الجيم) "الجمل القوي"[15]، و(النون) هو " الحوت...أو الدواة"[16] .

أمّا المنهج الثّاني فيربط بين الحرف ودلالة محدّدة لا تبرحه حين تحتويه الكلمات، ونمثّل لذلك ببعض الحروف في الجدول التّالي[17] :

الحرف	معناه	الصفحة
الفاء	الفراغ والتّفريغ	14/1
السين	حرف الانتشار	17/1
الحاء	حرف الحب	21/1
الخاء	حرف الكراهية	23/1
الذال/الزاي	حرفا البروز	26/1
القاف	حرف القوة	31/1
النون	حرف الصغر والتّصغير	45/1

فدلالة (الفاء) مثلا هي الفراغ والتفريغ؛ أي إنه " يفرغ الشيء الذي تدلّ عليه الحروف الأخرى"[18]، ومن شواهده: صرف، أنفق، تفوه، نفخ، نفس، صفر، فرق، فصل، فصد، فصم، فاض، قطف، جفّ دفع، رفع، نشف، فسخ، حفر، فض ...

ويجدر الإلماع إلى أنّ دلالة الحرف "مأحوذة من طريقة لفظه"، ولهذا تكرّرت هذه الجملة في جلّ أقسام هذا الكتاب، فالدلالة مأخوذة من طريقة اللّفظ، والشّكل أو الرّسم مستوى من صور المعاني المعبَّر عنها" لأنّنا تخطّينا بالكتابة عهد الصورة الهيروغليفية وعهد المقطع إلى عهد الحروف الأبجدية"[19] كما يقول عباس العقاد.

الشّعراء ورسم الحروف:

لقد كان ما سلف توطئة لهذا العنوان؛ الذي هو بيت القصيد من هذه الدّراسة، فالشعراء لهم ذوق في الحروف يتميز عن ذوق التّصوف لشيوع الأول وجمهرته، وخصوصية الأخير

وتجوزه، وتذوق الشعراء للأحرف وأشكالها يباين مقاربات المعجميين وايحاءاتهم، لأن من مقاصد الشّعرية البحث عن التفرّد ، بينما تسعى المعجميات إلى البحث عن قواسم التّوحّد.

إن كثرة أمثلة التّشبيه برسم الحروف وتناثرها في مصادر المجالات المعرفية التي بحثت موضوع الحروف جعلتنا نجمل في عرض شواهد تلك الظاهرة الأدبية، ثم نميل إلى تناول حرف أو حرفين نبرز فاعلية الحجاج فيهما، وسيكون لبقية الحروف وقفات أخرى بمناهج وغايات أخرى.

العرض:

الشّاهد الأول: قال أبو النّجم العجلي الرّاجز[20] يصف حاله وهو ثمل:

أقبلت من عند زياد كالخرف تخطّ رجلاي بخطّ مختلف

كأنّما قد كتبا لام ألف

(زياد) اسم صديق له يسقيه الشراب فينصرف أبو النجم ثملا من عنده.

الشّاهد الثّاني: قال بكر بن النّطاح[21]:

يا من إذا درس الإنجيل ظلّ له قلب التقي عن القرآن منصرفا

إنّي رأيتك في نومي تعانقني كما يعانق لام الكاتب الألفا

الشاهد الثّالث: ذكر المختار الرازي بيتين من الشعر في كتابه(الحروف)[22] :

قد صرت كالنون في الهجران منحنيا وكنت في الوصل عند الإلْفِ كالألِف

وضاق صدري مثل الميم من خزنٍ فهل أراني وحِبِي مثل لامَلِفْ

الشاهد الرّابع: قال ذو الرّمة يصف ناقته وقد أعياها المسير[23]

كأنّما عينها فيها وقد ضمرت وضمّها السّير في بعض الأضا ميمُ

الشّاهد الخامس: قال عبد اللّه بن المعتز[24]:

و كأنّ السقاة بين النّدامى ألفات بين السّطور قيام

في حجاجية الشواهد:

لا نعتقد بوجود رأي ينكر أن" دور الشّعر العربي في التّداول والإقناع، والتّأثير في السّلوك،أمر مشهور معروف، أي أنه يتخطّى حدود الإمتاع إلى الانجاز، بل كان الإمتاع في جلّ نماذجه سبيل الإنجاز"[25]، ومن ثمّ وجب ألاّ ينظر إلى جماليات صوره ولطافة معانيه فقط، بل يتحتّم البحث عمّا يتغيّاه من متلقّيه، وعن الآليات المستخدمة في الاستمالة والتّأثير.

وتجدر الإشارة إلى أنّ فعل التّأثير غير محصور في النّمط الشّعري دون سواه، كما قد يتراءى من النّص المذكور أعلاه، إنّما" كلّ النّصوص والخطابات الّتي تنجَز بواسطة اللّغة الطبيعية

حجاجية"[26]، تهدف إلى إقناع المتلقي إما بالبرهنة والأدلّة العقلية، وإمّا بإمتاعه بصور الخيال رغبة في التّأثير عليه.

صحيح.. قد يكون للنّمط الأدبي دور في الإقناع؛ إذ فاعلية النّص الشّعري أقوى منها في النّصّ النّثري، لكنّ هذا لا ينفي خطر عنصر التّأثير عن أ نماط التّعبير الأخرى لارتباط الحجاج بالتّواصل" فالنّصّ الأدبي...لا يخلو من حجاج طالما أنّه لا يخلو من رسالة يروم توصيلها"[27]، ويبقى التّنويع للآليات المحقِّقة لذلك.

لقد أدّى التّرابط بين التّواصل والتّأثير ببعض اللسانيين إلى ترجمة مصطلح (الوظيفة الإفهامية la fonction cognitive) لياكبسون، بمصطلح (الوظيفة التّأثيرية (la fonction impréssive) [28]، وفرّقوا بين التّرجمتين بكون "الأول نظر إليها من وجهة نظر عقلية، بينما المصطلح الثّاني (impréssive) يحمل المدلول العاطفي للوظيفة"[29]، وفي كلتا الحالتين ترتبط هذه الوظيفة بالمتلقي، وهو الطرف الأساس في الدّارة التّواصلية.

يُستخلص ممّا سبق، إن الحجاج بغايتيه الإقناع أو الإمتاع، مكون موجود بالفعل في أي خطاب، بل إن هناك من يقول بأسبقية الوظيفة الحجاجية على الوظيفة التّبليغية، لأنّ المتكلم حين يتكلّم يمارس سلطة على متلقّيه" والكلام له قوة تغييرية تحويلية للواقع بمختلف أنماطه لا تعادلها أي قوة"[30].

وممّا سلف يحقّ لنا القول بأن الشّواهد المعروضة أعلاه، والتي استُخدم فيها رسم الحروف صورا فنّية، إنّما أراد بها أصحابها لفت انتباه المتلقّي قصد استمالته وإقناعه بنتيجة معينة، وإلاّ لما عدلوا بالحرف عن حقيقته كونه صوتا منطوقا له رسم ثابت لكنّه لا يحمل أية دلالة ذاتية تمكننا من فعل الانزياح عنها في خيال الشّعر.

بالعودة إلى شواهد الدّراسة نجد الشّعراء قد اخرجوا الحرف من حدود الاستعمال الموضوعي، واستخدموه في صورٍ جديدة قصدوا بها إقناع المتلقي بما يعرضوه عليه من حقائق تتعلق بأحوالهم المعبَّر عنها، تلك العواطف التي صارت مجسّدة تجسّد رسم الحرف المشبهة به، وهنا مكمن عنصر الماجأة التي" تهتز لها النفس بفضل شحنتها التّأثيرية العالية لكونها غير منتظرة"[31]، لخروج المعنى عن المألوف.

لقد استُخدم رسم الحرف ، استخداما حجاجيا في الشواهد الثّلاثة الأولى، بجعله مشبها به" والتشبيه والاستعارة حجاجيان من جهة أنّهما يمثلان ضربا من القياس..."[32]، حيث استُغل ثبات الرسم ليكون حقيقة مسلّما بها، أو مقدمة كبرى تسري فيها المقدمة الصغرى التي هي الحالة الشخصية المتغيرة لأصحاب تلك الأبيات، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى نتيجة حتمية لا يمكن لأي متلقٍّ الخروج عنها أو احتمال غيرها.

ففي الشواهد الثلاثة الأولى استُخدم رسم الحرف(لام ألف) في الإمتاع والتّأثير، وذلك باستغلال الصورة الخطية المحسوسة في تجسيد العواطف والأحوال؛ والصّورة الحسية أقوى أدلة الإقناع في الشّهادة، والملاحظ هو تنوع الاعتبار في تلك الأمثلة؛ فأبو النجم العجلي استغلّ ميل الحرف(لام ألف) في أسفله ليكون صورة تمايله وترنحه في المشي بفعل السكر فيه.

بينما استغل أصحاب الشواهد (2) و(3) تلازم مكوني الحرف (لام ألف) الذي له وجود في منظومة الحروف الهجائية العربية[33]، في التعبير عن شدّة التّعلق بالمحبوب، فتوحد الصوتين (اللام والألف) في صورة خطية واحدة، أوحى في المثالين بجعله مثالا يجسّد طلب المحب لملازمة محبوبه.

لقد أكسب ثبات رسم الحروف في الخطّ معاني الشعراء قوة تأثيرية بالغة من شأنها استمالة المتلقي وتوجيهه النتيجة المقصودة ؛ وذلك بتقريب المتغيّر(العربدة، والتعلّق بالمحبوب) من الثّابت (رسم الحرف) الّذي نعتبره موضع حجاج؛ لكون الخطّ من المسلمات في العرف الاجتماعي؛ فهو إذاً من "المبادئ العامة التي تشدّ من أزر العامل وتقوي سلطانه على الملفوظ"[34]، وعوامل الحجاج في البيتين هما: (كأنما) و(كما).

يبدو أنّنا لن نخرج من شواهد التّصوير بحرف(لام ألف)، ذاك التصوير الذي قدّم لنا حالة العجلي في مشهد يقترب كثيرا من المشاهد المرئية بالعين، وهذا ما نعتبره قمّة التّصوير، والأمر ذاته ينطبق على الشواهد(2) و(3)؛ حيث تمظهرت حالة الشوق في صورة كائنين متعانقين، وفي هذا تعبير عن الّرغبة بالصورة المرغوب فيها بعد تحققها.

لكن فاعلية الحجاج لا تكتفي بتقريب صورتين مختلفتين من بعضهما لأجل المبالغة في تأكيد النتائج المقصودة، إنما تسعى إلى إضفاء أبعاد أخرى تُستلزم من طبيعة الحجج والمواضع الداعمة لملافيظ الكلام، ففي الشواهد المدروسة يسعى الشعراء لتأكيد نتيجة هي دوام الحالة المعبّر عنها مادامت الحجّة المستعملة، وهي صورة الحرف الخطية، لازمة ثابتة غير متغيرة، بل إن تعارف النّاس عليها يخدم اشتهار الشّعراء بلواعجهم وحالاتهم تلك.

ومنه يمكن القول إنّ التّشبيه بالشكل الخطّي لحرف(لام الف) لم يقصد به المتعة التّصويرية التي قد تتراءى في الصنعة اللّفظية، إنّما قصد بها التعبير عن حالات قد لا نوفيها حقّها إلا بهذا الضرب من التصوير؛ حيث أفرغ الحرف المشبه به من خصائصه الشّكلية ليكون أداة تصوير للمعاني، وأداة تحديد لميزات تلك المعاني، لكن ما الذي شفع لنا بالذهاب في هذا المذهب؟.

إن تصوير الحروف للمعاني لم يكن بدعا في صنعة الشّعر، بل هو قول ثابت سار فيه دارسون كثُر ممّن أرخوا للكتابة العربية؛" فالحروف العربية بقايا صورة مجسمة كانت ترسم

للدّلالة على أسمائها أو أعمالها، أو هما معا،... وفي الحروف العربية دلالات صورها وأصولها القديمة التي تقلّصت واختزلت وعوضت بجزئيات منها"[35] فالباء جزء من البيت، والجيم جزء من الجيم، والكاف جزء من الكفّ...[36] .

لكن يجب التنبيه على أنّنا لا نقول بأنّ الشّعراء كانوا يدركون هذه الحقائق التّاريخية، فهذا ممّا لا يخطر على بالنا، بل أنّ الشاعر أبا النّجم العجلي كان ممّن يجهلون الكتابة[37]، كما أن تلك الدراسات ظهرت بظهور المنهج التّاريخي المقارن في الدّراسات اللّغوية الحديثة الّتي تسلحت بشعار الموضوعية العلمية، بينما صنيع الشعراء تولد من الخيال والذّوق الذاتيين، وبهذا لا نطلب من شاعر غارق في خياله يجهل الكتابة التّأريخ للحروف.

مراجع البحث وإحالاته:

1- اللسانيات النشأة و التطور: أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط،2002،ص01.

2- ينظر م ن ص11،15،24،

3- الفلسفة اللّغوية و الألفاظ العربية: جرجي زيدان، دار الحداثة ، لبنان، ط1987،2،ص177.

4- النظام السيميائي للخط العربي: يحي عبابنة، اتحاد الكتاب العرب، سوريا،1998، ض05.

5-الخط العربي وتاريخه، محمد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1994،ص52.

6-الحروف العربية و تبدّلاتها الصوتية في كتاب سيبويه: مكي درار، اتحاد الكتاب العرب، سوريا،2007، ص35.

7- الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة و الإغراب قصدا: أسماء خوالدية، دار الأمان ، المغرب،ط1، 46، 2014.

8- أدبية النصّ الصّوفي بين الإبلاغ النفعي و الإبداع الفنّي، محمد زايد، عالم الكتب الحديث، الأردن،ط1 ،2011،ص123.

9- ينظر كشف المشكل في النحو: علي بن سليمان الحيدرة اليمني، تح: هادي عطية، دار عمار، الأردن، ط1، 2002،ص155.

10- خصائص الحروف العربية و معانيها، حسن عباس، اتحاد الكتب العرب، سوريا، 1998،ص35.

11-خصائص الحروف العربية و معانيها: ص 73.

12- م ن ص 55.

13- كتاب الحروف، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ضمن ثلاثة كتب في الحروف: تح: رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2 ، 1995، ص 34.

14- م ن ص35.

15- م ن ص ن.

16-م ن ص 45.

17- ما ذكر في الجدول مأخوذ من كتاب: معاني الأحرف العربية: إياد الحصني، د م ، د ط ،د ع،

18- معاني الأحرف العربية14.

19- اللّغة الشاعرة عباس محمود العقاد، مكتبة غريب، مصر، ص 41.

20- أدب الكتاب: محمد أبو بكر بن يحي الصولي، تح: محمود شكري الآلوسي، المكتبة السلفية، مصر،62..

21- م ن ص ن.

22- كتاب الحروف: أحمد بن المختار الرازي، ضمن ثلاثة كتب في الحروف: تح: رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2 ، 1995، ص148.

23- أدب الكتّاب: ص62.

24- أدب الكتاب: ص 63.

25- في حجاج النّص الشعري: محمد عبد الباسط عيد، إفريقيا الشرق ، المغرب ،دط ،2013 ص34.

26-حوار حول الحجاج: أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، المغرب،ط1، 2010، ص27.

27-في حجاج النّص الشعري:ص41.

28-التّواصل اللّساني و الشعرية: الطاهر بومزبر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2007، ص39.

29- م ن ص ن.

30-حوار حول الحجاج: ص36.

31-التواصل اللساني و الشعرية: ص41.

32-دراسات في الحجاج: قراءة لنصوص مختارة، سامية الدريدي الحسني، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1،2009.ص 48.

33-ينظر التبدلات الصوتية. ص 31، و الخط العربي و تاريخه: ص49.

34-العوامل الحجاجية في اللّغة العربية: عزّ الدين الناجح، مكتبة علاء الدين، تونس، ط1، 2011،ص 87.

35-التبدلات الصوتية ص 35.

36- ينظر اللغة الشاعرة ص 41، النظام السيميائي للخط العربي:ص31،37 ، الفلسفة اللغوية و الألفاظ العربية: ص176،

37- أدب الكتاب ص 62